لقاء مع شاعر الفقراء : احمد عبد المعطي حجازي

اجرى المقابلة
محمد بركات

● كان الهدف من هذه المقابلة الطويلة مع الشاعر احمد عبدالمعطي حجازي هو الاجابة على سؤال بسيط : اي انسان وفنان هو ؟

نحن جميعا نعرف الشاعر . قرأنا لـه واحببناه واتفق بعضنا معه واختلف اخرون . ها هوذا الفنان يخرج علينا كل فترة بقصيدة جديدة او بديوان ، وها هي ذي عشرات الدراسات حول عالمه الشعري والدور الذي قام به في ثورة التجديد التي شهدها الشعر العربي الحديث . ولكن ، من الانسان ؟ ما هي عوامل التكوين التي ساهمت في صنع هذا الشاعر ؟ ما هي روافده الاولى ؟ الى اين تمتد جذوره الفنية والفكرية ؟ ومرة اخرى : اي انسان وفنان هو ؟

كان الشاعر احمد عبدالمعطي حجازي يستعد للسفر الى باريس . انه يريد ان يرى ارضا جديدة ويقابل اناسا اخرين . انـه يبحث عن معرفة متجددة ، وها هو ذا يشد الرحال الى الضفة الاخرى من البحر. انه سيغيب شهورا طويلة او سنوات لا يعلم عدتها الا الله ، ومن ثم كان لا بد من هذا اللقاء قبل السفر . لقاء مع الشاعر العربي احمد عبد المعطي حجازي : شاعر الفقراء ..

● قلت : نحن نعرف الشاعر . ولكن ، من انـت ؟ . من اين بدأ فنك .. ما منابعه .. وكيف تم هذا عبر مرحلة التكوين الاولى ؟

قال : انت تريد ان نبدأ من بعيد . لا بأس . سنبدأ من قرية مصرية اسمها ((تلا)) بمحافظة المنوفية . حين تكـون في هذه المحافظة فانت تشعـر بمصر حقيقة . مصر بكل جمالها ومآسايها . خصوبة الارض وجمال عطائها وتاريخها ورائحتهـا الخاصة . هذا الى فقر اهلهـا وتحضرهم . انها سرة الدلتا . ومنطقة ((تلا)) وسط الدلتا الى الجنوب هي اخصب منطقة في دلتا النيل التي هي اخصب منطقة في مصر ، ومصر كما يقال هي من اخصب بلاد الارض . فانا جئت مـن اخصب منطقة في العالم . هذا الخصب لم يكـن نعمة ولكنه كان كارثة لانه زحم الارض بالسكـان الى درجـة هائلـة .وهكذا ضاع الغنى ، غنى الارض وغنى الناس . ولان المنطقة من اخصب اراضي مصر فهي من اقدمهـا عمرانا وتحضرا ، لذلك تعتبر من اغنى مناطق مصر بالفنون الشعبية ، فلها رقصاتها واغانيهـا وملابسها ولهجاتها .

● قلت : انه التراث الحضاري للبيئة الزراعية اذن .. هذا اول الروافد .. اليس كذلـك ؟

قال : نعم . لذلك كان من اهم الاشياء التي اثرت في وجداني وانا طفل صغير ((البكائيات)) التي كنت اسمعهـا من امي في رثاء اخوتها. كان لها سبعـة اخوة مـات معظمهم في اقل من ثلاث سنوات . ومـات بعض ابنائهم في هذه الفترة ايضا . كنت طفلا في الرابعة ومـا زال شكلهـا محفورا في داخلي حتى الان . لم اكن اراهـا الا خارجة بـلا حذاء او جراب وهي تلبس ملابسها السوداء . فتذهب ثم تعود . لقد تكرر هذا المشهـد الاليـم مرات متعددة خلال هذه الفترة المبكرة . ثم اذكـر دائمـا هذا المشهد : مشهـد الضحى الى مـا بعد الظهيرة حين يكون الريف ساكنا جدا وتخلو القرية الا من البهائم والنساء والاطفال. وتخـرج السحالـى من الشقوق بعيونها الكبيرة اللامعة . الشمس حارة تنعكس اشعتهـا القويـة على اواني المياه . ثم اصوات الدواجـن وهمهمات الحشرات . في هذا الجو الساكن الصوفي الجياش ذي الطابع المأسوي تبدأ كل امرأة وهي تؤدي اعمالها المنزليـة في بكاء الموتـى . آباء او ابناء او اخوة . كانت امي شابة في ذلك الحين (٢٣ سنـة) وكنت انا في هذه السن التي تتفتح فيهـا كل حواسي على العالم .كنت بالطبع طفلا غير عادي يتمتع بذكاء ومعرفة وفضول . لم اكـن اجـد نفسي الا مستمعا بالرغم مني لهذه البكائيـات الاليمة كأنهـا الجراح الفاغرة . كانت الكلمـات الجياشة وكان صوت امي يتسللان الى دمي، وكنت استطيع ان احتمل هذا المشهد ساعـة او بعضهـا ثم لا استطيع بعد ذلك الا الفرار . لكن ، الى اين ؟ كنت اهرب الى الحقـول او السوق او اتبـع بعض السائليـن الذيـن يجمعون الصدقات عن طريق الغناء . اذكـر مغنية سائلـة كانت تطوف في وقت بعينه في امسيات رمضان قبل الافطار . وكانت امرأة كبيرة في السن ، تمشي معها طفلة جميلة جدا لعلها حفيدتها . كـان صوتهـا مليئا بالعذاب والشجـن والجمال . كنت اتبعهـا ولا اكف عن متابعتها الا خوفا من ان اضل . كنت اتحول الى كائن مسحور وراء صوت وكلمـات هذه المغنية العمياء.

● قلت : الان يمكن ان نتلمس طريقا الى هذه الغنائيـة الجميلة في اشعارك ، والى هذا الشجن المأسوي في عالمك الفني .. قد نجـد مصادر هذا كله في بكائيات هذه الام الصغيرة الحزينة ، فمـاذا عن الاب ؟ .

قال : اخذت عن ابي بنفس القدر . كان نموذجا فيه مشابه كثيرة من نماذج الرجل الشرقي الذي اصبح الان نموذجـا روائيـا كالـذي نشاهده في روايـات نجيب محفوظ . انه الرجل المتذوق للحياة والنساء والفـن والثقافة . وهذا في حدود الريف المصري طبعا . كان متابعـا للثقافـة السياسية كمـا يقراهـا في الصحف والمجلات . وكان قارئـا

للشعـر محبا للموسيقى ويملك مكتبة تضم تراث سيد درويش وسلامة حجازي ومنيرة المهدية وعبدالوهاب القديم وام كلثوم القديمة . كان اهم ما في هذا الرجل انـه كان كنزاً بشريا . كان يعرف كثيرا ويستمتع كثيرا ويتألم كثيرا ، ولكنه لفرط ما عرف واستمتع وتألم لاذ بالصمت. انجبنـا وهـو كبيـر فانا الطفل الثاني له والولد الاول . كان عمره عندمـا انجبني خمسين سنـة وتوفي في السبعين . كان بيني وبينه عمر طويل جدا .

لم تكن بيننا علاقة تفصيلية ، لكنهـا رغم هذا كانت علاقة حميمة جدا . هي علاقة الاب الذي ينجب بشغف وشوق الى الابناء ، لان امي ـ وكانت زوجته الرابعة ـ كانت هي اول من انجبت له ، حيثلم تنجب له احدى زوجاته الثلاث الاول .

ان عدم وجود ابناء كثيرين لوالدي افقـده الاحساس التـام بالانتماء . لم يكـن ـ ولم نكن معه ـ نرتبط بالارض باسباب قويـة فنحـن لا نملكهـا ولا نزرعهـا .. ولعل هذا ما يفسر تلك الرغبةالدائمة عند اسرتنـا في الخروج من القرية .

● قلت : هل نتسع بالدائرة قليلا ، لنخرج من الاسرة الان الى القرية نفسها . ماذا عن البيئة وطبيعة العلاقات الاجتماعية والسياسية التي تحكمهـا والتي لا بد ان يتفتح عليهـا وجدان شاب صغيـر علـى وشك ان يصبح شاعـرا ؟

قال : كانت تعاني البلدة الصغيرة من هذا الانشقاق الذي حدث في مصر بين الثقافة التقليدية والجديدة . لقد حدث هذا الانشقاق في قريـة « نلا » قبل ان يحدث في كثير من القرى الاخرى في ريف مصر. كان هناك عدد كبيـر من المتعلميـن في الازهر الشريف . ومع بدايـة الثلاثينات بدأ يظهـر جيل جديد من الذيـن تخرجوا في الجامعة . وحدث ما كان لا بد ان يحدث بيـن ثقافتيـن متعارضتين تماما .احدث هؤلاء الشبان ثورة حقيقية فقد اصبحوا يعودون من القاهرة فيالاجازات بالبدل والطرابيش ويجلسون في حديقة البلدية ويتناولون كثيراً مـن المسائل التي يعتبرهـا التقليديـون من المقدسات ـ وكان بعضهـا كذلك فعـلا ـ تناولا فيه الكثيـر من الخفـة وبارائهم الجديدة التي تعلموها فـي الجامعة . في نفس الوقت تبلور الصراع الاجتماعي بحدة في هذه الفترة التاريخية بيـن هؤلاء الشبان الذيـن ينتمون الى عائلاتمتوسطة ودون المتوسطة وبين ابناء الاعيـان الذيـن لم يؤمنوا ابدا بفائـدة التعليم الجامعي للفقراء . ان ارستقراطية الريف كانـت تعتقـد ان التعليم مسألة ثانوية ومع هذا فان منهم من تعلم في انجلترا وفرنسا في اواخر القرن الماضي واوائل هذاالقرن .

في هذه البيئة التي فيها اصلا ثقافة اصيلة ، وفيهـا هـذا الصراع العنيف بين ثقافتيـن متعارضتين وما ادى اليه هذا من نشوء طبقـة جديدة ليست هي طبقـة كبار الملاك ولا هي طبقـة الفلاحيـن المعدمين وانما طبقة الافندية والموظفيـن الذين تعلمـوا فـي المدارس والجامعات ، ثم مـا ادى اليه هذا كله من تبلور الصراع الطبقيالعنيف بيـن هذه الطبقات . في هذه البيئة بدأت افهم واعي ابعاد المأساة الاجتماعيـة في مصر ، ذلك ان ما كـان يحدث فيهذه القرية فـي الاربعينيات واوائل الخمسينات كان تركيزا وتلخيصا للتحولات الخطيرة التي شهدتهـا مصر كلهـا بعد ذلك .

وقد كان لا بد لكل هذه الظروف الخاصة والعامة ايضا ان تشد صبيـا ذكيـا الى فـن الشعـر .

● قلت : كان ذلك مع بدايـة الخمسينات بالضرورة ؟

قال : نعم . كنت في الثامنة عشرة ، وكان ذلك عام ١٩٥٣ فانا من مواليـد عام ١٩٣٥ .. كتبت اول قصيدة بعد الثورة بشهور ولكـن لم انشرهـا الا في عام ١٩٥٤

● قلت : انت تذكرها بالطبع ، فهي القصيدة الاولى ؟

قال : لقد كتبت قبلها كثيرا من الشعر ، ولكنها كانت القصيـدة الاولى التي وجدت طريقها الى النشر . جعلت لها عنوانا هـو « بكـاء الابد » ولكني نسيت القصيدة ولا اكاد اذكر الا ابياتهـا الاولـى .. قلت فيهـا :

عندمـا ابد عني الغـور السحيق
من فنون الليل والصمت العميـق
طوحت بـي كفـه فـوق طريـق
ضائع النجمة مجهول الرفيق
لست ادري وانا صمت وليـل
كيف اشدو ، كيف اعطيـه الشروق ؟

● قلت : هل يمكن القول بانك تأثرت في هذه المرحلـة الباكرة بأحد من شعراء الجيـل السابق ؟

قال : بالتأكيد . كانت هناك تأثرات عديدة . وفي هذه الابيـات السابقة ـ مثلا ـ يبدو تأثير محمود حسن اسماعيل واضحا . كـان شاعرنـا وشاعر الشباب وقد فتن به ناشئة الشعراء في الاربعينات. ومن الذين تأثروا به جدا في الجيل الذي انتمي اليه نـازك الملائكـة وبدر شاكـر السيـاب .

● قلت : لقد بدأت تكتب الشعر اذن مع بداية ثورة ٢٣ يوليو في مصر . ها هـو ذا الشاعـر يضع قدمه على بدايـة الطريق ، فهل كانت لـك تجربة مميزة او ملامح تجربة على الاقل عبرت او حاولت ان تعبر عنهـا في اشعار هذه المرحلـة ؟

قال : في هذه السنوات الاولـى وحتى عام ١٩٥٦ كانت اشعاري كلهـا تدور حول تجربتي الخاصة . افتتاني الشديد بالريف .علاقتي الحميمة باسرتي . تركت القريـة ورحلت الى المدينة . وتملكني هذا الاحساس الهائل بالغربة في العاصمة الكبيرة . نزحت الى القاهرة بكل احساس الفلاح المصري تجاه المدينة . ان الريف المصري يعتقد دائما ان المدن الكبيرة اشبه بمدن الكفار . وهذا الاعتقاد يمكـن بالطبـع تفسيره تفسيرات متعددة ولكن اساسهالحقيقي اساس اقتصاديمصدره ان الريف محروم والمدن مترفة . لذلك يعتقـد الريفيون ان افصح لغة هي لغتهم وان لغـة المدينة لغـة مخنثة . واهل المدينة ليسوا اقـل سوءا من لغتهم . ان المدينة هي المكان الذي يشرب فيه الناس الخمر على قارعـة الطريق ، والذي تستطيع ان تكـون فيه المـرأة بغيا . والمدينة هي موطـن الفساد بشكل عام .وهي الشر ، وهي القسـوة واللاانسانية حيث يضيع فيهـا الاحترام وأبناء الاصـول من النبلاء ، وبالتالي فان الريف ـ في المقابل ـ هو الطهارة والبراءة والطيبةوالحب والانسانية ، حيث لا يخجل الرجل العابر ان يدخل داراً فيطلبطعاما او شرابا او منامـا فيجد كل هذا وهو معزز مكرم محتفظ بماء وجهه .

تستطيع عندئذ ان تتصور تجربة شاب ريفي يبطـن كل هـذا التراث ويأتي الى المدينـة باحثا عن عمل ، وهـو لا يجد قوتيومه . وانما هو يقضي ايامه في البحث عـن العمل متنقـلا بين مساكن ابناء قريته الذيـن مـا زالوا يطلبون العلم في المدينة . انه يخرج كلصباح بحثا عـن هذا العمل اللعين الذي يعرف سلفـا انه لن يجده . ثمعليه ان يبحث عن دواوين شعر اخرى . كانت مشكلة عسيرة فماذا يحسن شاب درس التربيـة وهو يقرض الشعر الا ان يكـون مدرسا اوشاعرا. وكـان الشعـر هـو امضى اسلحته . لقـد كانت التجربة التي عبرت عنهـا في ذلك الحيـن هي تجربة الجميع تقريبا ،وهي تجربة قديمة . انهـا هجرة الريفيين الى العاصمة . وكانت هذه التجربة تنتظر من يعبر عنها .. لذلك كانت قصائدي الاولـى رغم بساطتها بلوسذاجتها ايضا من اهم ما كتبت . كانت عمـلا اشبه بالسحر في ذلك الوقت . لقد قدمتني كشاعـر متميز للناس . انني ما زلت اذكـر انبهارالناقد المرحوم انور المعداوي والاساتذة عبدالقادر القط ، ومحمود امينالعالم، واحمد بهاءالدين ، ورجاء النقاش بهذه القصائد الاولى .

لقد قدمتني هذه القصائد الى هؤلاء ، وبواسطتهم دخلت بـاب

الصحافة في مؤسسة روز اليوسف وكان ذلك عام ١٩٥٦ .

● قلت : هكذا اصبحت كاتبا وشاعرا محترما مع بداية عام ١٩٥٦ ؟

قال : كان العمل الصحفي هو الوظيفة . اما الشعر فهو همي الاول والاخير . عملت مراجعا واخذت اكتب بعض المقالات في النقد الادبي واخذت احرر بابا بعنوان « عصير الكتب » في اواخر الخمسينات ثم انحصر عملي في النقد الادبي وفي معالجة المشاكل والقضايا الثقافية والادبية وبعض المشاكل الاخرى ولكن من زاوية فكرية .

● قلت : لقد بدأت تكتب الشعر مع بداية ثورة ٢٣ يوليو كما تقول .. كيف كان احساسك بهذه الثورة . ما موقفك منها وما رأيك في الافكار التي طرحتها على المستوى القومي والعربي . وهل يمكن ان نربط بين هذا كله وبين تجربتك الشعرية ككل ؟

قال : لقد تأكد انتمائي لثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ منذ اليوم الاول . وهي الوقت الذي تأكد فيه هذا الانتماء تفتحت علاقتي على الفكرة العربية . وكان ذلك من خلال علاقات انسانية عادية بسيطة، وبالتحديد من خلال علاقتي بالطلاب العرب في القاهرة والذين كانوا في ذلك الوقت مشغوفين بالتعرف على الحياة الثقافية في مصر ، وخاصة بشباب الحركة الثقافية ، ومن خلال امجاد الثورة الجزائرية التي كانت في ذلك الحين اقرب الى الشعر منها الى الحرب العادية او النضال السياسي التقليدي .. ومن خلال السهرات والمواويل العراقية والدبكات الشامية وعيون البنات الجميلات في الجامعة.. ومن خلال العدوان الثلاثي والمظاهرات ضد حلف بغداد .. من خلال هذا كله توثقت علاقتي بالفكرة العربية ، وآمنت ايمانا قريبا من ايماني باني ابن ابي ان العرب امة واحدة . ووجدت ان الدفاع عن هذه الفكرة خاصة في مصر حيث كان جانب كبير من المثقفين بعيدين قليلا او كثيرا عنها وبعضهم كان معاديا لها ـ سوف يشكل اساسا هاما من اسس حياتي .

وكانت الوحدة المصرية السورية هي الذروة التي وصل اليها ايماني بثورة يوليو والفكرة العربية معا .

ثم بعد ذلك بدأت الانكسارات التي كان عبدالناصر يوقفها احيانا لتحقيق بعض الانتصارات كما فعل مثلا عندما شارك في ثورة اليمن وعندما امم الثروة القومية .

لكن اعتقد الان ان وقوع الانفصال وغياب الديموقراطية كان لهما اثر كبير فيما عانيت منه من تمزق شديد ادى الى زلزلة كياني وايماني ومسلماتي جميعا .. ثم كانت هزيمة يونيو ووفاة عبد الناصر .

لقد خرجت من هذه التجربة بمزيد من الايمان بعظمة الشعب العربي ، وبان اعظم الرجال لا يستطيع ان يصنع شيئا اذا وضع الشعب خارج الحياة والفعل .. وبدأت لي تجربة جديدة من هذه القناعة .

● قلت : ان حديثك هذا عن ثورة ٢٣ يوليو قد يلزمنا بأن نطرح سؤالا عن السياسة في الشعر بشكل عام ،وعن السياسة في شعرك على نحو خاص ؟

قال : السياسة عندما تسلل الى صميم الحياة الوجدانية للشاعر تصبح شعرا . والشاعر يسقط عندما يشك للحظة واحدة في مسلماته السياسية . ويسقط الشاعر ايضا عندما يتخذ من عقيدته السياسية سلما للشهرة او للامن او للمكانة الاجتماعية .. لكن ما دامت القضية السياسية هما من هموم الانسان كالحب والمصير، وما دامت موقفا يستأهل التضحية ، وما دامت جزءا من عالم الشاعر لا ينفصل عن موضوعاته الاخرى ، فهي ليست ضد الشعر.ان كل هذه الموضوعات ـ السياسة والحب والطبيعة وغيرها ـ هي مجرد موضوعات مهمها فقط ان ترشد الشاعر الى القصيدة او تأخذ بيده الى عالم الفكرة ، وليس المهم في النهاية هوالموضوع، وانما المهم هو الفكرة التي يستخلصها الشاعر من هذا الموضوع . او بالاحرى من القصيدة ، او على الاصح تستخلصها القصيدة بذاتها من ذاتها .

واعترف انني في بعض الاحيان قد كتبت ما اشك في سلامه . ولكن اشهد اني لم افعل هذا لاغراض معيبة او لا اخلاقية . بالعكس، لقد كانت السلامة الاخلاقية هي المصدر الاول الذي جعلني اكتب هذه القصائد . كنت اعتقد اني مطالب بتغليب موقف على موقف او رأي على رأي . وكنت اتشبث بالرأي او بالطرف الذي كنت ادعي انه يحفظ على الناس تفاؤلهم ويحفزهم الى مزيد من النضال ، ويجنبهم اليأس ، ويبعدهم عن هاوية السقوط . لكن اخطأت . ففي الشعر لا يوجد الا الصواب المطلق، ولا يوجد الا الايمان الذي لا شك فيه . لا اقصد ان كل ما يعتقد الشاعر انه صواب هو صواب مطلق ، ولكني اقصد ان الشعر لا يأتي الا من اعتقاد الشاعر بانه في جانب الصواب المطلق . واذا كنت قد بدأت بهذا الاعتراف فان من حقي على نفسي ان اقول ايضا اني من اوائل الذين حولوا معتقداتهم السياسية الى شعر صحيح ، بحيث لا يستطيع الناقد امام هذا الشعر ان يقول انه شعر مناسبات ، وانما كل ما يستطيع ان يفعله هو ان يعترف اولا بانه امام شاعر معتقد ويمكنه بعد ذلك ان يقول في هذا الشعر ما يشاء .

● قلت : هل يعني هذا انك وجدت طريقا ، حين تقول انه لا بد للناقد ان يعترف اولا بانه امام شاعر معتقد.. ثم ما هو هذا الاعتقاد الذي يقوم عليه شعرك اليوم وغدا ؟

قال : لقد حاولت جاهدا ان اسلك طريقا اخر غير الطريقين المعهودين في علاقة الشعراء العرب بالسياسة . طريق شعراء المناسبات التقليديين . وطريق الشعراء الاخرين الذين يزعمون ان الشعر لا يكون شعرا الا اذا كان في موضوع سياسي .

لم تكن السياسة بالنسبة لي حرفة ابدا . كانت هما وعقيدة. وانا ما زلت وسوف اظل وفي كل ما اكتب ايا كان الموضوع الذي استلهمه مؤمنا اشد الايمان بوحدة الشعب العربي ، وبأن المستقبل للاشتراكية ، وبان اعظم عدو للبشر هو الطغيان .. واعتقد الان ان من واجبي ان اتعلم من تجربتي . لقد القيت باعمالي الكبيرة على اعناق العابرين . ومن واجبي الان ان ابحث لهذه الاعمال عن اعناق افضل .

● قلت : في كل ما كتبت ـ وفي هذا الحديث ايضا ـ يلاحظ القارىء ان « الفكرة العربية » تسيطر عليك سيطرة كاملة . كيف تفهم هذه الفكرة . وكيف تريد ان تعبر عنها ؟

قال : انني افهم الفكرة العربية ليس فهما قوميا فقط ولكني افهمها فهما حضاريا . ان من اكبر طموحاتي ان ادرك جوهر الحضارة العربية ، وان استطيع ان اكتب ولو مقالا اساسيا واحدا عن الجوهر المشترك بين الشعر العربي ، والزخرفة العربية ،والموسيقى العربية. ليس فقط من الوجهة الجمالية وانما التاريخية اساسا .اقصد محاولة تتبع الجوهر الجمالي لهذه الحضارة في التاريخ انتهاء بمحاولة فهم هذا الانسان العربي وكيف يعبر عن ذاته . لذلك اعتبر كل تعبير اصيل في الفن العربي نافذة لفهم هذا الانسان . وكنزا يجب ان افتحه وان اتامل جواهره ولآلئه وحتى ترابه .

ان هذا ليس تعصبا شوفينيا ولكن تجربة الانسان العربي في الحقيقة هي تجربة انسانية ثمينة بكل مقياس ، ولا شك ان محاولة تفسيرها والنفاذ الى جوهرها هو عمل خليق بكل انسان متحضر .

ودعك من هذا الجانب الثقافي . خذ الجانب الذاتي المحض . اني اجد في كثير من الاغاني التونسية والمغربية بشكل عام اصداء للاغاني التي كانت ترددها جدتي وخاصة اغاني الحج. وانا اجد في كثير من الاغاني الشامية مشابه بينها وبين الاغاني المصرية في الالحان والكلمات ايضا .

ثم دعك من هذا كله وخذ تجربتي الشعرية ذاتها . انني احاول ان اجد شيئا مشتركا ليس بين بلاغتي وبلاغة الشعراء القدامى وحسب وانما بين بلاغتي وهذه البلاغة المشتركة في الفن الشعبي وفي الفن الفصيح ان صح هذا القول .

ثم دعك في النهاية من كل ما ذكرت . انني احب هذا الفن العربي .هذا هو قلبي .

● قلت : لعل هذا الحديث الطويل يوضح لنا الكثير من الجوانب التي يقوم عليها مضمون تجربتك الشعرية ..

ولكن ماذا عن الشكل . انك احد الشعراء الذين ارتبط اسمهم بهذا البنيان الشعري الجديد في الادب العربي ، فهل تحدثنا عن هذه الاضافات الشكلية في شعرك ، وكيف ترتبط هذه الاضافات بفهمك للتجربة الانسانية بشكل عام ، وبتجربتك الفنية على نحو خاص ؟

قال : بالنسبة لي، فالانسانية ليست على طرف نقيض اطلاقا مع الاضافات الشكلية . ان كل اضافة جمالية حقيقية لا يمكن الا ان تستند الى تجربة انسانية عميقة .. لا يمكن ان تقدم اي اضافات جمالية حقيقية عن طريق الترجمة او النسخ او التقليد او المغامرة الخالية من الحس الانساني . اقصد الخالية من محاوله معرفة هذا الكائن : تجربته مع الربح والخسارة والميلاد والموت والفرح والالم والحب والكراهية والنجاح والسقوط . .وبما ان المعرفة الانسانية هي في الاساس معرفة تاريخية فلا يمكن للفنان الا ان يرتبط بالتاريخ . ان ارتباط الفنان بالتاريخ هو الذي يدفعه الى البحث عن مكان له في المستقبل ، وهو الذي يدفعه الى البحث عن مكان التراث في نفسه . ولذلك فالقصائد التي تشكل في شعري قفزات شكلية هي ذاتها التي تشكل في شعري قفزات في الفهم والمعرفة والتجربة . وانما ادعي ان هذا ليس في شعري فقط وانا هو عند كل شاعر له تجربة هامة .

وانا لست في هذا مع الذين يبالغون في قدر الانسان مبالغة عاطفية تمنح الاشياء وجودها لمجرد وجودها في عالم الانسان . لست مع هؤلاء الرومانسيين الذين يحولون العالم الى شيء ذاتي محض . ان تأملي للوجود الانساني والمصير الانساني هو الذي يجعلني أومن ايمانا مأساويا باستقلال العالم عن الانسان وبانه موجود برغم الانسان .

وهذا الادراك هو الذي يجعلني اقيم هذا الجدل .. الجدل الموجود بالفعل بين العالم والانسان . بين المستقر والمتحرك . في المقابل فانا ضد احتقار التجربة الانسانية . وحتى على المستوى الشخصي ان كل تجربة فردية حين نتأملها تفصح لنا عن مفرداتها وعمقها واهميتها بل واقول وشمولها .

ومن هنا كان الانسان هو بطل اشعاري. الانسان الذي اتأمله عملا جبارا وجسدا جبارا .. لكنه الجبروت الذي قد يستطيع الصمود امام القهر والجهل وامام الحرمان لكنه لا يستطيع الصمود امام الموت . ان الموت في الحقيقة هو حجر الزاوية في كثير من اشعاري وخاصة الاخيرة . وانا اعترف ان هذا الموت ليس عنصر تشاؤم في اشعاري وليس عنصر تهوين او يأس ، وانما هو دافع الى تأكيد البطولة الانسانية . من هنا اعتبر ان كل مجد هو غير صحيح الا ان يكون مجد الانسان ، وايضا ارى ان اي مغامرة شكلية في الشعر ما لم تنبع من هذا الادراك ، فهي مغامرة شاردة ضليلة .

انني في الاساس واحد من الذين ساهموا في اقامة هذا البنيان الشعري الجديد ، وانا في كل لحظة مع كل اضافة شكلية ، لكن استغرب التركيز في هذه الاونة على الاضافات الشكلية فحسب.ان كثيرا من الاشعار العظيمة التي نحبها الان ونرددها ونتمنى لو اننا كتبناها قيلت منذ الاف السنين وهي لا تستند الا لمهارات شكلية محدودة لا تقاس بجانب المهارات التي يعرفها اصغر شاعر الان . لكن كثيرا من اصحاب هذه المهارات الشكلية المعاصرين يكنسهم التاريخ وتبقى هذه الاشعار البسيطة الساذجة القديمة .

آنذاك لم تكن هناك صحف ولم يكن هناك مجد الشهرة المبتذل الموجود الان والذي يتهافت عليه الكثيرون من الشعراء . وآنذاك كان هناك الشاعر والليل ، والشاعر والصحراء ، والشاعر والموت، والشاعر ونفسه . كان الشعر سرا ولم يكن بدلة جديدة او لافتة او اعلانا .

اسمع هذه الابيات البسيطة للشاعر جذيمة الابرشي الوضاح الذي عاش في أواسط القرن الخامس قبل الهجرة :

ربما أوفيت من علم ... ترفعن ثوبي شمالات
من فتو أنا كالثهم ... في بلايا غزوة باتوا
ثم أبنا غانمين معا ... وأناس بعدنا ماتوا
نحن كنا في ممرهم ... اذ ممر القوم خوات
ليت شعري ما اماتهم ... نحن ادلجنا وهم باتوا

بعد الاف السنين حين يسأل الانسان نفسه : ليت شعري ما اماتهم ؟.. هذا هو الشعر .

● قلت : قالوا انك شاعر الفقراء .. فمن هم الفقراء وهل انت شاعرهم حقا ؟

قال : نعم انا شاعر الفقراء ولكن بالمعنى الذي افهمه انا . انني اعتبر ان أفضل البشر هم الفقراء . انهم الذين يحاربون في فيتنام وهم الذين حاربوا في سيناء . انهم الذين يعيشون في روسيا وكوبا .. وهم الذين يكتبون الشعر في كل انحاء العالم . وهم الذين يقرأون الشعر ايضا . ان الفقراء هم البشر . ولهذا فليس اعظم في العالم من فقير تأمل اسباب فقره .. ولهذا الفقير بالذات اكتب شعري .

* *

كانت جلستنا قد امتدت ساعات طويلة منذ اول الليل .والحديث مع شاعرنا الكبير يمكن ان يستمر بلا نهاية .. ولكن الرحلة التي قطعناها معا كانت قد بلغت ذروتها عند هذا الحد ، كما كان نور الصباح قد بدأ يتسلل من خصاص الشباك . لقد امضيت الليل بطوله ابحث مع احمد عبدالمعطي حجازي عن اجابة هذا السؤال الصغير : اي انسان وفنان هو ؟ وبقدر ما احسست انني حصلت على اجابة السؤال، احسست انني لم اظفر بعد بالاجابة كاملة . كان الشاعر قلقا يهم بالسفر الى اوروبا . انه يستعد للذهاب الى باريس . وكان علي ان استقصي دوافع الشاعر الى هذه الرحلة ومعناها ، ولكن لم اسأله. فقط كنت أسأل نفسي وانا اودعه : هل سيذهب الى اوروبا حقا بحثا عن معرفة جديدة ،ام سيذهب بحثا عمن لا نعرف من الفقراء وراء البحر .. ليكتب لهم بعض الشعر .

القاهرة — محمد بركات